فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ

تأليف

العلامة:

محمد الأمين الشنقيطي

رحمه الله تعالى

Al_Shanqiti

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم

قال العلامة:

محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى

في كتابه (الرحلة إلى إفريقيا)

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة / ٢١]، يعني: من أعظم براهين عبادة الله وحده أنّه خلقنا واخترعنا من العلم إلى الوجود، وخلقه لنا من غرائب وعجائب صنعه كما نبين منه نموذجا قليلًا هنا: أولًا: الله في القرآن يجعل الفرق والعلامة الفارقة بين من يستحق أن يُعبد ومن لا يستحق أن يُعبد هي الإبراز والاختراع والإبداء من العلم إلى الوجود، فمن يخترعك ويبرزك من العلم إلى الوجود عليك أن تعبده، ومن لا يخلقك فهو محتاج إلى خالق -مثلك- فأنت وهو ملزمان بأن تعبدا من خلقكما، ولذا قال هنا: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة وقال جل وعلا: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ﴾ [النحل / ١٧] لا والله ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الخَلْقُ عَلَيهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ وهُوَ الواحِدُ القَهّارُ (١٦)﴾ [الرعد / ١٦] وخالق كل شيء هو معبود كل شيء، وهذه الحالة التي خلقنا عليها خالق الكون هي من غرائب وعجائب صنع مَن خلقنا،

وقد أمرنا أمرًا واجبًا على كل إنسان منا أن ينظر فيها ويتأمل حيث قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)﴾ [الطارق ٥] هذا أمر واجب من خالق الكون؛ لأنّ المقرر في علوم المعاني وعلوم الأصول:

أن صيغ الأمر الأربعة تدل على الوجوب حتمًا إلّا إذا صرف عنه صارف، وهذا هو الحق. وصيغ الأمر الدّالة على الوجوب في اللُّغة العربيَّة معلوم أنّها أربع صيغ:

أولها: فعل الأمر، نحو: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ﴾.

الثّاني: الفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله:

﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (٢٤)﴾ [عبس / ٢٤].

الثالث: اسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة / ١٠٥].

الرابع: المصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ﴾ [محمد / ٤] (فضرب الرقاب) يعني: اضربوا رقابهم. هذه صيغ الأمر. وصيغة الأمر هنا في ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ﴾ هي تقتضي الوجوب الحتم، ﴿مِمَّ خُلِقَ (٥)﴾؟ والإنسان له رحلة يجب على المسكين أن يتأملها وينظر فيها ليعلم قدره ويعلم عظمة من خلقه، أمر الله بالنظر فيها في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (٥)

وبين للخلق ماخلقهم منه قال: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ترى الذي خلقناكم منه هو الذي تعرفوه. وقد أوضح الله -تعالى- رحلة الإنسان إيضاحًا يُعرَف الإنسان بنفسه ويُعرفه بربه، ذلك الإيضاح في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ وذلك أن هذا الإنسان الذي يطغى ويبغي ويغزو الفضاء ويحاول يتمرد على نظام السماء، ويعصي من خلق هذا الكون، ابتداء رحلته تراب وماء، أخذ الله ترابًا فبَلَّهُ بماءٍ فصار اسمه طينًا، ثم إن الله نقل هذا الطين من طور إلى طور خُمر حتّى صار حمأ مسنونًا، ويُبس حتّى صار صلصالًا كالفخار، ثم خلق الله بقدرته منه رجلًا لحمًا ودمًا هو الأب آدم عليه صلوات الله وسلامه، فلما خلق هذا الإنسان من هذا التُّراب ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ [آل عمران / ٥٩]. لما خلق هذا الإنسان من هذا التُّراب خلق امرأته من ضلعه، وقد نص الله تعالى على أنّه خلق حواء من آدم في ثلاث سور من كتابه: في أول سورة النساء في قوله: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنها زَوْجَها﴾ [النساء / ١] النَّفس: آدم، وزوجها التي خُلقت منه: حواء. وقال في سور الأعراف: ﴿خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وجَعَلَ مِنها زَوْجَها﴾ [الأعراف / ١٨٩]. وقال في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنها زَوْجَها﴾ [الزمر / ٦].

ثم بعد أن صار هناك زوجان رجل وامرأة كان الطور الثّاني للآدميين هي نطفة مَنِيٍّ تقع في رحم المرأة ﴿مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان / ٢] أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، ثم تمكث هذه النطفة في الرحم ما شاء الله، ثم ينقلها الله -جل وعلا- علقة، أي: دمًا جامدًا، ثم ينقل الله هذا الدم إلى مضغة -قطعة لحم على نحو ما يقطعه آكل اللحم ليمضغه- ثم إن الله يحول هذا اللحم إلى هيكل عظام يركب فيه هذه العظام بعضها ببعض، هذه السُلاميات، وهذا البنان، وهذه المفاصل يُركب بعضها ببعض، هذا التركيب الدقيق والصنع الهائل العجيب في كل عضو منا، وهذا الذي ركبه ليس بأخرق كما قال: {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وشَدَدْنا أَسْرَهُمْ} [الإنسان / ٢٨] الأسر: يعني الشد كما تقول للمرأة: «أَسَرَتْ اخْطيرها» (١) -يقولون بالحسانية- ومعناه: يعني ضم الشيء إلى الشيء وشدّه به شدًا محكمًا ﴿وشَدَدْنا أَسْرَهُمْ﴾ لو كان الذي شد اليد بالساعد والساعد بالمرفق والبنانة بالبنانة لو كان أخرقًا إذا تحرك الإنسان سقطت يده، أو سقط مرفقه، أو طاح رجله، بل الذي يشدها يشده شدًا محكمًا، ثم إن الله -جل وعلا- يكسوهذا الجسم هذا اللحم ويجعل فيه هذا الدم، ويُجري مجاري البول والغائط يفتحها لتنزل عنها الفضلات، ويفتح مجاري العروق والشرايين ليدير الدم، ويضع كل عضو في محله كالكبد والطحال والكليتين،

ويُوَكِّل كلًّا بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح هاتين العينين، ويجعل فيهما هذا النور، ويصبغ بعض العينين بصبغ أسود، وبعضهما بصبغ أبيض، ويفتح هذا الفم ويجعل فيه اللسان، ويودعه هذه الفصاحة، ويُنبع عين الريق العذبة ليأكل بها الإنسان، إذ لو يبس ريقه لما ابتلع الزبد الذائب، ثم إنّه إذا لم تكن له حاجة في الريق لم يجم لئلا يتعبه التفل [...] (٢) يعني جُعلت له الأذنان ليسمع، وجعل على هذا التركيب الغريب الهائل [وجعل على هذه الهيئة بطنه، وشهدت] العينان حول البطن، والظهر الذي ليس عنده عينان جُعل عظمًا لو ضربه شيء لا يكاد يضر، وجعل في الإنسان من الغرائب والعجائب شيء يكبر العقول، حتّى إن ما يحتاج إلى قصه دائمًا كشعره وأظافره نُزعت منه روح الحياة لئلا يتعِبَه عند القص. هذا من غرائب وعجائب خالق الكون -جل وعلا- خلقنا على هذا النحو الغريب، وصَور بني آدم على هذه الصورة، جعل الأنف هنا، والعينين هنا، ولم يشتبه اثنان، طبع كل إنسان على صورة مخالفة لصورة الآخر، وهذه الصورة التي وضع عليها كل واحد هي سابقة في العلم الأزلي، ووضع تنفيذًا على نحو ما سبق به العلم،

ولو خُلق ملايين الملايين زائدًا على من خُلق لم يضق العلم، فكل واحد توجد له صورة مخالفة لصورة الآخر، حتّى آثارهم في الأرض وأصوات نغماتهم وبصماتهم في الأوراق كلها مختلفة، هذه صنائع رب العالمين، وهذه أسرار قليلة من أسرار معنى ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة / ٢١] يعني: فمن فعل فيكم هذا من الأفعال والغرائب والعجائب في كل عضو وكل مطرح إبره هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه. ولا يخفى عليكم أن ربنا فعل فينا هذا من الغرائب والعجائب ونحن في بطون أمهاتنا لم يحتج إلى أن يشق أم الواحد منا، ولا أن يبنجها، ولا ينومها في صحية، بل فعل كل هذه العمليات والمرأة لاهية تفرح وتمرح لا تدري عن شيء مما يُفعل في داخلها من غرائب صنع الله وعجائبه، ثم ييسر طريق الخروج. ونحن دائمًا نذكر هذا لأن الله يلفتنا إليه حيث يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لا إِلَهَ إلا هُوَ فَأَنّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر / ٦] وهو محل الشاهد، فهذا الذي يفعل هذا الخلق والإيجاد هذا هو الذي يستحق أن يُعبد.

ثم قال: ﴿والَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة / ٢١] أي: وخلق الذين من قبلكم. يعني: اعبدوه لأجل أن تتقوه، أي: أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وعذابه وقاية، والوقاية: هي امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

تراث

العلامة:

مُحَمَّد الأَمِين الشَّنقيطي

رحمه اللَّه رحمة واسعة

Al_Shanqiti